وَمَنْ نَأى عنِ الحرامِ طالباً مِنْ رُشْدِه حَلالَهُ حَلا لَهُ

وهي أبيات جيدة، وفي البيت الأول نظر لأنّ أفعاله فاعل تحوّلت، فهو مرفوع، وأفعى له لامه مفتوح بخلاف بقية الأبيات فهي متوافقة الجناس بالحروف والحركات.

وجرى القلم عند كتب هذه الأبيات بشيء من جنسها مثل عددها وهو: [من الرجز]

لا تَشْتَغِلْ بِمَلْبسٍ فَكُلّ ذي فَضْلٍ ترى أَسْمالَهُ أَسْمَى لَهُ[1]
مَنْ يطلب الشيءَ العظيمَ عاجزاً عَنْ حملِهِ وَنالَهُ وَنَى لَهُ
مَنْ لَمْ يَذُدْ رَقيبَهُ عَنْ مَرْبَعٍ يَلْقَى بِهِ غَزَالَهُ غَزَى لَهُ
في رَاحةِ المرءِ وفي تَرْويحِهِ فُؤاده وَبالَهُ وَبى لَهُ

٣١٤

(السيد عَليّ ابن الإمام شَرَف الدين بن شَمْس الدين)

ولد في رجب سنة ٩٢٧ سبع وعشرين وتسعمائة، وأخذ عن والده وغيره، وفاق في فنون كثيرة، واشتهر بالعلم، (ومات) في رجب سنة ٩٧٨ ثمانٍ وسبعين وتسعمائة بحصن حب مسموماً في سفرجلة أهداها له رجل. وولده إبراهيم من أكابر العلماء، أخذ عن والده وغيره، وأخذ عنه جماعة من الأكابر، منهم الشيخ لُطْف اللَّه بن مُحمَّد الغياث، وقبره بشبام.

٣١٥

(مولانا الإمام خليفة العصر أمير المؤمنين المنصور باللَّه ربِّ العالمين عليّ ابن الإمام المَهْدي)[2]

العبَّاس بن المَنْصُور حُسَيْن بن المُتوكّل القَاسِم بن حُسَيْن بن المَهْدي أحمد بن الحَسَن ابن الإمام المنصور القَاسِم بن مُحمَّد. قد تقدم تمام نسبه في ترجمة جده الحَسَن بن القَاسِم. ولد حسبما سمعته منه حفظه اللَّه في سنة ١١٥١ إحدى وخمسين ومائة وألف بصنعاء، ونشأ بها. وفي سنة (١١٧٢) أو في التي قبلها فوَّض إليه والده الإمام المهدي ولاية صنعاء، وجعله أمير الأجناد وأمره بسكون قصر صنعاء فقام بذلك قياماً تاماً بحزم ومهابةٍ وحرمةٍ وافرةٍ ومكارم واسعة وحسن أخلاق وصبر على الأمور وسياسة لأحوالِ الجمهور، فاستمرَّ على ذلك ودام فيه مدة أيام والده. واتفق في سنة

(١) الأسمال: الثياب البالية.

(٢) ترجمته في: الأعلام: ٤/ ٢٩٨؛ نيل الوطر: ٢/ ١٤٠.

(١١٨٤) أنّ حَسَنَ العنسيّ الساكن بجبل برط المُتَرئِّس على ذوي مُحمَّد، وذوي حُسَيْن الساكنين في جبل برط وهم جمرة عرب اليمن إذ ذاك، وأهل الشوكة منهم ومن لا يقوم لهم غيرهم من سائر القبائل، وقع بينه وبين الإمام المهدي رحمه اللّٰه خطوب كانت سبباً لخروجه عليه، فخرج بجيش من المذكورين، ومن غيرهم لم يخرج بمثله أحد من أهل تلك الجهات، فاستعدّ له مولانا الإمام المهدي وجمع العساكر وأرسل أحد أمراء أجناده وهو الأمير سندروس بمعظم جيوشه من خيل ورجل وسائر العساكر المطلوبة من القبائل حتى اجتمع له جيش كثير وأمر أمير الأجناد ومن معه من الجيوش أن يلتقي حَسَن العنسي إلى بعض الطريق، فلما علم بذلك حَسَن العَنْسي سلك طريقاً أخرى، فلم يشعر أهل صنعاء إلَّا وهو في سعوان، وهو محل شرقي صنعاء قريب منها فحصلت بذلك رجَّة في صنعاء كبيرة. وكان الإمام المهدي ساكناً في الجانب الغربي من صنعاء ومولانا ولده صاحب الترجمة ساكناً في القصر، وهو في الجانب الشرقي فخرج عند أن بلغه ذلك الخبر في طائفة يسيرة من أصحابه لا يبلغون خمسمائة رجل وطائفة يسيرة من الخيل أكثرهم لا نفع فيه لكون معظم الخيل المنتخبة قد صارت صحبة الأمير سندروس، فاصطفَّ له حَسَن العنسي وأصحابه وهم ألوف مؤلفة وفيهم من أهل الشجاعة والتجربة للحروب والاعتياد للشرِّ من هو أضعاف أضعاف من مع مولانا، بل ما زال ذلك المقدار اليسير يتناقص بفرار من لا يستحي من العسكر وتسترهم بين الأثل ونحوه قبل الوصول إلى المعركة. فلما تراءى الجمعان كان مَنْ بين يدي مولانا بالنسبة إلى الجمع الآخر كلا شيء، وهو يقدم ولا ينثني ويحثّ مَنْ بين يديه على المصابرة والإقدام ويحول بينهم وبين الإحجام حتى وصل بهم إلى نحر العدو وضايقوهم غاية المضايقة وقتلوا منهم كثيراً ولكنهم انثالوا عليهم من جميع الجوانب كأنهم الجراد، فتأخر بأصحابه قليلاً قليلاً وهو يدافع عنهم وخرج والده الإمام المهدي مغيراً إليه ومغيثاً له فالتقاه وهو يتهلهل لم يظهر عليه فزع ولا جزع ولا طيش ولا خفة ولا وجل ولا خطل بل من رآه ظن أنه جاء من بعض المتنزهات، وهو قد خرج من معركة تطير لها العقول وتشيب لها الولدان وترجف منها الأفئدة وتخرس عندها الألسن، وهكذا فلتكن الشجاعة. وبعد هذه الموقعة اعترف له الكبير والصغير والجليل والحقير حتى خصومه بأنه بمكان من ثبات الجنان يقصر عنه أبناء الزمان. ثم إنه استمر على إمارة الجيش وولاية صنعاء وما يرجع إليها حتى مات والده الإمام المهدي في شهر رجب سنة (١١٨٩) فبايعه العلماء والحكام وآل الإمام وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، ولم يتخلف عنه أحد، وفرحوا به واغتبطوا بخلافته، وأحبهم وأحبوه. وتولى وزارته جماعة منهم السيد عليّ بن يَحْيَى الشامي إلى عند موته، ثم الفقيه الحَسَن بن عُثمان القُرشي، ثم ولده الفقيه حَسَن بن حَسَن. ومن جملة وزرائه

السيد أحمد بن إسْمَاعيل فايع. وولي القضاء الأكبر عند مبايعته القاضي العلَّامة يَحْيَى بن صَالح السَّحولي. وأما أمراء أجناده فهم في أول خلافته الأمراء الذين كانوا في أيام والده الأمير فيروز، والنقيب ريحان، وغيرهما. ثم ماتوا وصارت الإمارة إلى الأمير سرور المنصور أياماً، وإلى النقيب جوهر. وأما ولاية صنعاء وإمارة الجيش الذي كان أميراً عليهم قبل خلافته فصارت أياماً يسيرة إلى أخيه القَاسِم بن المَهْدي، ثم بعد ذلك صارت إلى ولده الهُمام صفيّ الإسلام أحمد ابن أمير المؤمنين، وهو الآن القائم بتدبير الأجناد والمتولي لجميع الأمور بصنعاء وما يليها، وله من كمال الرياسة وحسن مسلك السياسة والمهابة والصرامة والفطنة بدقائق الأمور والاطلاع على أحوال الجمهور وجودة التدبير والخبرة بالجلي والخفي ما لا يمكن وصفه مع النقادة التامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة والمعرفة للأدب ومطالعة كتبه والإشراف على كتب التاريخ ومحبة أهل الفضائل وكراهة أرباب الرذائل والنزاهة والصيانة والميل إلى معالي الأمور. وهو أكبر أولاد الإمام. وقد تقدمت له ترجمة مستقلة. ويليه في السِّنِّ أخوه (شرف الإسلام الحَسَن ابن أمير المؤمنين) وهو حسن الأخلاق عظيم الهمة كريم السجية شريف النفس مُطَّلعٌ على ما تمسُّ إليه الحاجة من أمور الدين والدنيا. ويليه أخوه (فخر الإسلام عبد اللَّه ابن أمير المؤمنين) وهو أحد أمراء الأجناد، وجعل إليه والده الإمام الإشراف على الديوان، واستنابه في الحضور مع الحكام عند فصل الخصام في يومي الاجتماع من كل أسبوع، وجعل إليه ولاية بعض البلاد كالحيمة، وبلاد البستان. وفيه من حسن الخلق ومزيد التواضع وكرم السجايا ومعرفة حقائق القضايا ما هو غاية ونهاية. ولوالده إليه ميل عظيم ومحبة زائدة، وفيه خبرة كاملة ومحبة لقضاء حوائج المحتاجين والتبليغ إلى والده بمطالب الطالبين والشفاعة لمن يلوذ به من القاصدين والدلالة على سبيل الخير بكل ممكن. ويليه أخوه (عِزّ الإسلام مُحمَّد ابن أمير المؤمنين) وهو أحد أمراء الأجناد، وهو من فحول الرجال في جميع الأحوال، وله من معرفة الحقائق ومحبة معالي الأمور ونزاهة النفس والعفة والصيانة ما هو متفرد به. وقد ولَّاه والده الإمام الجهات العمرانية، فعزم بجنده إلى هنالك، وهو الآن مقيم بها. وهؤلاء الأربعة هم البالغون مبالغ الرجال من أولاد مولانا الإمام. وأما الباقون فهم صغار لم يبلغوا سن التكليف عند تحرير هذا التاريخ، ولهم جميعاً في الفروسية طرائق يعجز عنها غيرهم ولا يدانيهم فيها سائر الناس، فكل واحد منهم إذا لعب بفرسه بين الفرسان صار نزهة للناظرين، ولا يفوقهم في هذا الشأن أحد إلَّا والدهم مولانا الإمام فإنه في ذلك لا يُبارَى ولا يساويه أحد من الناس، فإنه إذا طارد الفرسان، وحرّك حصانه بجانب الميدان، صار المتفرد بهذا الشان الفائق فيه جميع نوع الإنسان، بحيث لا يستطيع من رآه كذلك أن يميل نظره عنه لما يراه من حسن

الصناعة والفروسية البالغة إلى غاية البراعة. وله في التواضع ما لا يساويه فيه أحد ولا يصدق بذلك إلَّا من تاخمه وجالسه فإنه لا يعدّ نفسه إلَّا كأحد الناس، بل قد رأينا كثيراً ممن هو أصغر خدمه، بل ممن هو متعلق بأحقر عمل من عند بعض خدمه يترفع فوق ترفعه ويرى لنفسه من الحقّ فوق ما يرى لنفسه، وهذه خصيصة اختصه اللَّه بها ومزية شرَّفه اللَّه بالتحلي بها، فإنّ التواضع مع مزيد الشرف أحبّ من الشرف. ثم له من حسن الأخلاق أوفر حظٍّ وأكرم نصيب قلَّ أن يجد الإنسان مثل حسن خلقه عند أصغر المتعلقين بخدمته مع ما جُبل عليه من حسن النية وكرم الطوية وتفويض الأمور إلى خالقه والوقوف تحت المشيئة. وبهذا السبب ظفره اللَّه بمن يناويه ونصره على جميع من يعاديه، فلم تقم لباغٍ عليه قائمة. وهو مجبول على الغريزتين اللتين يحبهما اللَّه ورسوله الكرم والشجاعة، وإذا وقع في الظاهر شيء مما يظن من لم يطلع على الحقيقة أنه يخالف ذلك فهو لعذر لو اطلع عليه لوجده الصواب الذي لا ينبغي سواه، ولا يليق غيره. وقد يكون ذلك لسبب بعض المُتَّصلين بمقامه العالي، وهكذا إذا وقع في جانب الرعية ما لا يناسب الشرع فهو بسبب من غيره، وأما هو فلا يحب إلّا الخير، ولا يريد إلّا العدل. وإذا اتضح له ذلك أبطله ولم يَرْضَ به. وكثيراً ما يَخْفَى عليه ذلك بسبب مصانعة بعض من يتصل به للبعض الآخر، فمن هذه الحيثية قد يقع أمر لا يريده ولا يرضى به. وقد اشتهر هذا بين الناس حتى لا يقع التوجع منه في شيء أبداً، بل لجميع الرعية فيه غاية المحبة بحيث إنه مرض في بعض السنين فكانوا يجتمعون ويبكون ويدعون له بالبقاء. وقلَّ أن يتفق مثل هذا لأَحدٍ من الأَئمة والسلاطين في المتقدمين والمتأخرين. وهو آخذ من علم الشرع بنصيب، قرأ قبل مصير الخلافة إليه في الفقه والنحو على العلَّامة الحَسَن بن عليّ حَنَش الذي صار وزيراً له كما تقدم. وله شغف شديد بالكتب النفيسة ومطالعتها بحيث لا يقف في مكان إلَّا وعنده منها عدة. ولما كان في شهر رجب سنة (١٢٠٩) مات قاضيه المتقدم ذكره، وكان صدراً من الصدور وعارفاً بقوانين الأمور، وقد تولى القضاء الأكبر في أيام جدّه المنصور باللَّه الحُسَيْن بن القَاسِم في أيام والده الإمام المهدي، وضمّ إليه الوزارة، ثم نكبه، وأعاده مولانا الإمام عند أن بُويع بالخلافة، وولَّاه القضاء الأكبر، فكان يقوم بأمور القضاء وينتفع الإمام ووزراؤه بسديد رأيه لمزيد اختباره وكمال ممارسته. وكان يقصده الوزراء إذا نابهم أمر إلى بيته ويطلبه الخليفة إذا عرض مهمٌّ، فكان أكثر الأمور تصدر عن رأيه. وله في الصدور مهابة عظيمة وحرمة وافرة وجلالة تامة، ولعلها تأتي له ترجمة مستقلة إن شاء اللَّه تعالى. فلما مات في ذلك التاريخ، وكنت إذ ذاك مشتغلاً بالتدريس في علوم الاجتهاد والإفتاء والتصنيف منجمعاً عن الناس لا سيّما أهل الأمر وأرباب الدولة، فإني لا أتصل بأحد منهم كائناً من كان، ولم

يكن لي رغبة في سوى العلوم، وكنت أدرِّسُ الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً منها ما هو في التفسير كالكشاف وحواشيه، ومنها ما هو في الأصول كالعضد وحواشيه، والغاية وحاشيتها، وجمع الجوامع وشرحه وحاشيته، ومنها ما هو في المعاني والبيان كالمطول والمختصر وحواشيهما، ومنها ما هو في النحو كشرح الرضي على الكافية، والمغني، ومنها ما هو في الفقه كالبحر وضوء النهار، ومنها ما هو في الحديث كالصحيحين وغيرهما مع ما يعرض من تحرير الفتاوى ويمكن من التصنيف، فلم أشعر إلَّا بِطِلَابٍ لي من الخليفة بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع، فعزمت إلى مقامه العالي فذكر لي أنه قد رجَّح قيامي مقام القاضي المذكور، فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم، فقال القيام بالأمرين ممكن، وليس المراد إلَّا القيام بفصل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالي في يومي اجتماع الحكام فيه. فقلت سيقع مني الاستخارة للَّه والاستشارة لأهل الفضل، وما اختاره اللَّه ففيه الخير. فلما فارقته ما زلتُ مترددا نحو أسبوع، ولكنه وفد إليّ غالب من ينتسب إلى العلم في مدينة صنعاء، وأجمعوا على أن الإجابة واجبةٌ، وأنهم يخشون أن يدخل في هذا المنصب الذي إليه مرجع الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية من لا يُوثق بدينه وعلمه، وأكثروا من هذا وأرسلوا إليّ بالرسائل المطولة، فقبلت مستعيناً باللَّه ومُتَّكلاً عليه، ولم يقع التوقف على مباشرة الخصومات في اليومين فقط، بل انثال الناس من كلّ محلٍّ فاستغرقت في ذلك جميع الأوقات إلّا لحظات يسيرة قد أفرغتها للنظر في شيء من كتب العلم أو لشيء من التحصيل وتتميم ما قد كنت شرعت فيه. واشتغل الذهن شغلة كبيرة وتكدّر الخاطر تكدّراً زايداً ولا سيما وأنا لا أعرف الأمور الاصطلاحية في هذا الشأن، ولم أحضر عند قاضٍ في خصومة ولا في غيرها، بل كنتُ لا أحضر في مجالس الخصومة عند والدي رحمه اللَّه من أيام الصغر فما بعدها. ولكن شرح اللَّه الصدر وأعان على القيام بذلك الشأن، ومولانا الخليفة حفظه اللَّه ما ترك شيئاً من التعظيم إلّا وفعله، وكان يُجِلُّنِي إجلالاً عظيماً، وينفذ الشريعة على قرابته وأعوانه بل على نفسه، وأنا حال تحرير هذه الأحرف في سنة (١٢١٣) مستمرٌ على مباشرة تلك الوظيفة، مؤثّر للتدريس للطلبة في بعض الأوقات في مصنفاتي وغيرها، وأسأل اللَّهِ بِحَوْلِه وطَوْلِهِ أن يُرشدني إلى مراضيه، ويحول بيني وبين معاصيه، ويُيَسِّر لي الخير حيث كانَ ويدفع عنّي الشرّ ويقيمني في مقام العدل ويختار لي ما فيه الخير في الدين والدنيا. ولمولانا حفظه اللَّه في خلافته الغرّاء من الأمور العظيمة ما لا يتسع له إلّا سيرة مستقلة في مجلدات، سدّده اللَّه في جميع أموره، وأعانه على ما فيه رضاه، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

وفي آخر شهر رجب سنة ١٢٢٣ ثلاثٍ وعشرين بعد المائتين والألف، اتفقت

حادثة عظيمة في صنعاء وهي أن وزير مولانا الإمام الفقيه حَسَن بن حَسَن بن عُثمان العلفي تمكَّن تمكُّناً كبيراً، وصارت الأمور مقرونة به، وجميع التدبيرات مقصورة عليه، وكان بينه وبين سيدي أحمد ابن الإمام مواحشة بسبب أمور تصدر في مقام الخليفة، وبسبب تقصيره في أرزاق الأجناد، ثم تزايدت الوحشة ولم يسمع الوزير المناصحة منّي له إدلالاً بما له من الحظّ عند الخليفة، وصدرت منه أمور مشعرة بالاستخفاف بكثير من أقارب الخليفة وأصحابه وتقصير في الجرايات التي لقبائل بكيل، حتى كانوا يقطعون الطرق حول صنعاء وينهبون الأموال ويسفكون الدماء، وطال ذلك وأضرّ بالناس وتقطّعت الطرق ووثب كثير من القبائل على الطرق التي بقرب منهم، فجمع سيدي أحمد ابن الإمام أصحابه في التاريخ المتقدم، وطلب الوزير المذكور فأبى، فأرسل إليه جماعة من الجند فوصلوا وقبضوا عليه وعلى جماعة من قرابته فعظم ذلك على الخليفة، وأراد استخلاصه، فأرسل سيدي أحمد جماعة من الجند وأحاطوا بدار الخلافة وقد كان فيها سيدي عبد اللَّه ابن الإمام بجماعة من أصحابه فوقعت حرب، وأرسلتُ إلى الخليفة وأصلحت الأمر على أن سيدي أحمد يكون تدبير البلاد الإمامية إليه، ويكون لوالده بمنزلة الوزير ويبقى الوزير في اعتقاله. وفي أول ساعة من ليلة الأربعاء لعله خامس عشر شهر رمضان سنة ١٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين وألف (تُوفي) مولانا الإمام رحمه اللَّه بداره بصنعاء المسماة بدارً الإسعاد، ثم صُلّي عليه في قبة والده المهدي في جمع جمٍّ، وكان الذي صلَّى عليه راقم هذه الأحرف، وقُبر في طرف بستان المتوكّل، ووقعت البيعة لولده مولانا الإمام المتوكّل على اللَّه أحمد بن المَنْصور في الليلة التي مات فيها الإمام، وكنت أول من بايعه، ثم كنت المتولي لأخذ البيعة له من إخوته وأعمامه وسائر آل الإمام القاسِم، وجميع أعيان العلماء والرؤساء. وكانت البيعة منهم في أوقات، واللَّه المسؤول أن يجعل للمسلمين فيه صلاحاً وفلاحاً.

(٣١٦)

(عليّ بن عبد الكافي بن عليّ بن تمام بن يُوسُف بن مُوسَى ابن تمام بن حَامِد بن يَحْيَى بن عُمَر بن عُثمان بن عَليّ بن سِوَار بن سَليم السُّبكيّ تقيّ الدين، أبو الحَسَن الشافعيّ)[1]

ولد أول يوم من صفر سنة ٦٨٣ ثلاثٍ وثمانين وستمائة، وتفقَّه على والده،

(١) ترجمته في: معجم المؤلفين: ٧/ ١٢٧؛ الدرر الكامنة: ٣/ ٦٣؛ النجوم الزاهرة: ١٠/ ٣١٨؛ شذرات الذهب: ٦/ ١٨٠؛ بغية الوعاة: ٣٤٢؛ كشف الظنون: ٢١؛ ١١٨، ٩٣٦، ١٤٨٩؛ =